العرب
الأحد 2021/04/25
السنة 43 العدد 12041

صراع الهويّات في الوسط الأكاديمي الفرنسي

الذكورية والعنصرية تهم جاهزة

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

يعيش الوسط الأكاديمي والإعلامي الفرنسي هذه الأيام صراعا حادّا بين المتمسكين بالدراسات الجندرية والنسوية وفكّ التبعية الكولونيالية وخصومهم الذين يتهمونهم بجلب مقاربات أميركية لا علاقة لها بالواقع الفرنسي، وحتى بالانتماء إلى ما صار يسمى بـ"اليسار الإسلاموي"، وهو نعت ابتدعه اليمين المتطرف لاتهام بعض اليساريين بالتواطؤ مع المسلمين لمجرد أنهم تبنّوا الدفاع عن حقوق الأقليات وخاصة المسلمين.

تفجر الخلاف يوم الـ13 من يناير المنقضي حين أقدم ما يزيد عن سبعين جامعيا، من بينهم عالمة الاجتماع نتالي هاينيش والفلاسفة ميشيل فيشان وبيير هنري طافوايو وجان فرنسوا برونشتاين، على نشر "مرصد فك التبعية الكولونيالية والأيديولوجيات الهووية" يندّدون فيه بـ"حملة هووية غير مسبوقة داخل التعليم العالي وميادين البحث"، ويحذّرون مما أسموه "النسبوية المتطرفة" التي تختفي وراء تلك البحوث، حيث صارت المعرفة حسب رأيهم "محصورة في رهانات نفوذ، وصارت العلوم مدانة باستمرار بدعوى أنها قائمة على هيمنة العرق والثقافة والجندر".

> المنظمات العالمية، كصندوق النقد الدولي والبنك العالمي، هي من بين الأدوات التي جعلت للإبقاء على بلدان الأطراف

وندّدوا بـ"ظواهر حظر وترويع وتفرقة سياسية خلقت خطوط فصل غير مسبوقة، جعلت كثيرا من طلاب الدكتوراه مجبرين على اتباع أساتذتهم مخافة حرمانهم من وظائف في مراكز البحث". وأكدوا أن إيمانهم بضرورة مقاومة التمييز العنصري داخل مجتمعهم هو الذي يحدو بهم إلى ضرورة مقاومة "هذه الأشكال الجديدة من التعصّب"، ذلك أنهم يعتبرون أعمال زملائهم نوعا من العرقية المعاكسة.

والمعروف أن دراسات فك التبعية الكولونيالية هي مدرسة فكرية تعتقد أن القوى الاستعمارية السابقة لا تزال تمارس نفوذها وهيمنتها على مستعمراتها القديمة رغم حصول تلك المستعمرات على استقلالها، وهي دراسات ظهرت أول مرة مع نشأة جمهوريات في أميركا اللاتينية بعد استقلالها عن إسبانيا والبرتغال، فقد رفض أهم منظري تلك المدرسة الفكرة القائلة بأن نهاية الإدارة الكولونيالية وتأسيس دول قومية في أميركا الجنوبية خلقا عالما ما بعد كولونيالي فكّ ارتباطه بالاستعمار. فهم يعتقدون أن التقسيم العالمي للعمل بين المركز (أوروبا) والأطراف (بلدان أميركا اللاتينية وأفريقيا) وأن التراتبية العرقية للشعوب التي كانت قائمة طوال قرون من الاستعمار لم يتغيرا من حيث جوهرهما بنهاية الاستعمار.

وكان باحثون مثل الكولومبي ساتياغو كاسترو غونيس والبورتوريكي رامون غروسفوغيل قد بيّنا كيف أن المنظمات العالمية، كصندوق النقد الدولي والبنك العالمي، هي من بين الأدوات التي جعلت للإبقاء على بلدان الأطراف (دول الجنوب بعامة) في وضع تبعية. فالرأسمالية في نظرهم ليست مجرد منظومة اقتصادية أو ثقافية، بل هي شبكة نفوذ شمولي، تُدمج عن طريق إجراءات اقتصادية وسياسية وثقافية، فيتم بذلك ترسيخها.

تلك الدراسات تهدف إلى إبراز علاقات الهيمنة، الظاهر منها والباطن، في تصوّر النظام العالمي لدفع المناطق التي تخضع للاستعمار الحديث لتحقيق استقلالها الذاتي. ولكن نقدها لا يتوقف على العلاقات الاقتصادية التي يمكن أن تقوم مباشرة بين بلد استعماري قديم كالبرتغال ومستعمرة سابقة كالبرازيل، بل يتعداه إلى علاقات الهيمنة بين البلدان الأوروبية والأميركية الشمالية والبلدان الخاضعة لها اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا من خلال نظام استعماري حديث. كما أنها تتوقف عند هيمنة أخرى هي الهيمنة الداخلية، أي أن يوجد في البلد الواحد قوى مهيمِنة وفئات مهيمَن عليها، كما هو الشأن في الولايات المتحدة حيث يقع تهميش السّود وسكان البلاد الأصليين.

تلك البادرة ليست سوى حلقة من حلقات الحرب الفكرية الدائرة رحاها بين الداعين إلى الكونية وخصومهم ممثلي دراسات فك التبعية الكولونيالية. فالفريق الأول يعيب على خصومه خلطهم السياسة بالعلم، في سعيهم لإعادة بناء راديكالي يعتمد وجهة النظر وحدها، مثلما يعيب عليهم إسقاط المقاربات الأميركية على الواقع الفرنسي، حيث ينظرون إلى العلوم الأكثر موضوعية من زاوية هوية جنسهم وعرقهم، لأن المشكلة الأساسية في تلك المقاربات أنها تقوم على فرضيات يرفض أصحابها تحليلها والتأكّد من صوابها، فهي ترفض العامل البيولوجي في التمييز بين الرجل والمرأة، ومن يجرؤ على الحديث عن فوارق بين الجنسين يعدّ ذكوريا وعنصريا، لأن الجسد في تصورها مبني اجتماعيا، دون اعتبار ما توصل إليه الأطباء وعلماء الأمراض العصبية.

بل إن جان فرنسوا برونشتاين، المتخصص في التاريخ وفلسفة العلوم، يؤكد أن الوضع اليوم هو شكل من أشكال الليسانكية، وهي نظرية تنسب إلى تروفيم دينيسوفيتش ليسانكو (1898 – 1976) حين قسّم العلوم خلال الحرب الباردة إلى علمين، علم بورجوازي، خاطئ من أساسه، وعلم حقيقي هو العلم البروليتاري، وهي النظرية التي اتخذها ستالين ذريعة لمواصلة تصفيته للعلماء والمفكرين.

ويعزو برونشتاين نجاح تلك الدراسات الهووية لدى الطلبة والباحثين إلى التظلم، أي أن من يقومون بدراسات عن الجندر يرومون من وراء ذلك أن يقولوا إلى أيّ حد يعاني بعضهم من الميز، فهم حسب قوله "يريدون أن يكونوا الضحية الأبرز: امرأة، سوداء، فقيرة، معوقة.." وهذا اليقين بأنهم ينطقون باسم الضحايا هو ما يجعل تلك الأيديولوجيات بالغة العدوانية.

أما الطرف المقابل، أي الأقلية المتهمة باستخدام الهوية لفرض دراسات ذات خلفية أيديولوجية، فيرى أن ميله إلى الجندر وفك التبعية الكولونيالية جاء ردًا على الأدوات التي توسّل بها "التنوع الثقافي الليبرالي" كالتمييز الإيجابي، لكونها مجرد ستار دخاني لحجب علاقات الهيمنة الحقيقية المسلطة على النساء وعلى غير البيض، في حين أن دراسات فك التبعية الكولونيالية تبيّن أن مشكلة الهيمنة أنها تخضع لمنظومة، وكان من الأجدر فهم منطلقاتها التي تؤكد أن الإحساس بالهيمنة ليس وجهة نظر ولا نزق طفل مدلّل، بدل إدراج المطالبات الهووية في خانة الطائفية والتفرقة.

تقول المفكرة التونسية سمية المستيري من جامعة تونس إن في موقف برونشتاين شكلا من أشكال الكولونيالية الفلسفية، فهي تنتقد هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم حمَلة مهمة حضارية، والحال أن ما يميزهم هو براعتهم في تمرير رؤية مخصوصة عن العالم، يكون فيها الإنسان الغربي هو المسيطر، في إطار مجمَّل، يريدونه كونيًا، ما يعني أنهم يرتكبون حيفا إبستمولوجيًا، حيث كل فكر لا يتم التعبير عنه حسب مقاييس ومعايير الفكر الليبرالي والأكاديميّ لا يُعتدّ به لديهم، لأن المعارف المحلية، التي توصف بالأهلية، هي في نظرهم مجرد فولكلور عديم القيمة. فهم يستهينون بكل ما هو محلّي، ويزعمون أنهم يمتلكون معرفة كونية صالحة لكل زمان ومكان.

فكيف يمكن أن ينشأ حوار بين الطرفين المتعارضين؟ بالتخلي عن المركزية تقول المفكرة التونسية، بإقرار الطرف المقابل بأن تصوره للعالم هو خصوصية بدل تقديم وجهة النظر هذه كشيء كوني، والخير في أن يعي الخصوم هويتهم بدل انتقاد هوية الآخرين. فلكي يذهب المرء نحو الآخر ينبغي أولا أن يتحمل تجذره وموقعه، مثل بركار ينبغي غرز رأسه، أي هويته، قبل الانفتاح على الآخر. غير أن المشكلة هي أن من يزعمون أنهم ضحايا عرقية معاكسة يرفضون هذا التشخيص الذي يظل أساس حوار ممكن، وإلا فسوف يبقى الجميع في طريق مسدود.

غير أن خلافات جوهرية تمنع مثل هذا الحوار، فالفريق الأول يقر بأن من الجيّد أن تستكشف الفلسفة موضوعات جديدة كالجندر والجسد والهويات، ولكن ما يزعجه هو الهويات الجامدة التي تفترض أننا لا ننتمي إلا لفئة واحدة، أضف إلى ذلك أنه يمكن أن يكون المرء أبيض مناهضا للعنصرية، وأسود عنصريا، كما سبق أن أوضحه ميشيل فوكو عن تعدد المعايير وإمكانية استخدامها، وهو ما ترفضه دراسات الجندر وفك التبعية الكولونيالية، كما يعتقد أتباع هذا الفريق.

غير أن الفريق الثاني يؤكد أن الدراسات التي تعمل على استكشاف تقاطعات الهيمنة على اختلاف مستوياتها (النساء، السود، الفقراء..) تشيّئ الهويات لكونها عاجزة عن تحسس الفروق الكامنة داخل الفئات، نظرا لوجود مهيمنين ومهيمَن عليهم داخل الفئة الواحدة. ولا بدّ حينئذ من إخضاع الهوية إلى نقد ذاتي مستمر. وهذا ما لا يوافق عليه الفريق الأول.

أما الذين يقفون خارج هذا الصراع، مثل عالم الاجتماع جان لوي فابياني، فيرون أن فئة قليلة من الباحثين الأكاديميين تسعى إلى الاتكاء على مبدأ "اليسار الإسلاموي" في القيام بنقد راديكالي للتحولات الحديثة في مجال البحث، تقابلها أغلبية تعتقد أنها تواجه ظاهرة شبيهة بالماكرثية، والحال أن النزاع قائم على سوء تفاهم.

فلئن كان اليسار الإسلاموي حقيقة، فإنه لا يخص سوى العمل السياسي، وهذا لا وجود له في الساحة الفرنسية حسب فابياني، بل في بريطانيا حيث اقترح كريس هارمان عام 1999 في كتابه "النبي والبروليتاريا" تحالفا استراتيجيًا بين الإسلام السياسي والتروتسكية التي لا وزن لها تقريبا في ذلك البلد، بيد أن الفكرة القائلة إن المهيمَن عليهم حقا هم المسلمون، ولا بدّ من استعمالهم كرؤوس حراب في الصراع من أجل الانعتاق، ما انفكت الفكرة تنتشر ولكن دون أن تطغى على اليسار.

ديميتريس ليانتينيس آخر الفلاسفة الهيلينيين المتمردين

ياسين عاشور
كاتب تونسي

حاز الفيلسوف اليوناني ديميتريس ليانتينيس شهرة واسعة في بلاده سنة 1998 بسبب اختفائه المفاجئ والغريب الذي جعله مادة إعلامية شغلت الرأي العام طوال أسابيع، ثم عاد حديث الصحف مرة أخرى بعد اكتشاف رفاته في مغارة تقع في جبل تايجتوس سنة 2005.

ولد سنة 1942 وكان لقبه نيكولاكاكوس قبل أن يغيره إلى ليانتينيس نسبة إلى قرية ليانتينا مسقط رأسه. حصّل تكوينا أكاديميا في اختصاص الفيلولوجيا في معهد أثينا للفلسفة وقام بتدريسها فترة طويلة قبل أن يصبح دكتورا في الفلسفة بعد تقديم أطروحة حول "حضور الروح الإغريقية في مراثي دوينو لراينر ماريا ريلكه". قام بتأليف مجموعة من الكتب في البيداغوجيا والديداكتيكية وفي القراءة الفلسفية للشعر وفي تأويل الثقافة الإغريقية الكلاسيكية، أهمها وأشملها كتابه الأخير "الجوهرة" الذي صدر قبل اختفائه وفيه خلاصة فلسفته وأفكاره التي سنتعرض إلى بعضها في هذا المقال الموجز.

كان ليانتينيس يكن عشقا عظيما للثقافة الإغريقية الكلاسيكية التي كرس حياته لقراءة تراثها وتأويله، فقد حاز التقليد الهيليني على انشغاله الأكبر، وبجّله على التقليد الإبراهيمي المتمثل في التراث اليهو – مسيحي. كان يميل إلى اعتبار الهيلينية، أي الحضارة الإغريقية الكلاسيكية، أهم منابع الذات الغربية التي ينبغي العودة إليها حتى تبعث الحياة من جديد في حضارة الغرب المعاصر، ذلك أنه كان يعتقد أن الإغريق الكلاسيكيين كانوا يتميزون بتفوق أخلاقي ورفعة معنوية، ويرجع ذلك إلى علاقتهم بالموت، فقد تملك الإنسان الإغريقي الكلاسيكي من رباطة الجأش ما جعله يواجه فنائيته بتأسيس منوال أخلاقي يعكس طبيعة الوجود المتناهية بدلا من فرض الأخلاق بوصفها قانونا إلهيا متخيلا يضمن مآلهم إلى الخلود في جنات النعيم.

يقول "لقد ولدت التراجيديا الأتيكية من خلال علاقة الإغريق الجدلية بالموت، وهي بالتالي نتاج الاشتباك الروحي للإغريق بظاهرة الموت"، كما يعتبر أن "تطلع الإغريق الحزين إلى الموت ولّد الفن، في حين ولّد خوف الآخرين من الموت الأديان"، ويضيف "لقد زرع اليهود أرض الإيمان، وزرع الإغريق أرض المعرفة.. كان اليهود جلادين، أما الإغريق فقد كانوا قضاة.. ولهذا السبب انتصر اليهود".

لا يقصد ليانتينيس باليهود معتنقي الديانة اليهودية وحدهم، بل يشمل استعماله لكلمة "اليهود" التقليد اليهو – المسيحي كله (والإسلامي بدرجة أقل) الذي بلغ أوج انتصاره وهيمنته مع الإمبراطور قسطنطين العظيم الذي حوّل وجهة الغرب إلى المسيحية بعد اعتناقه لها وحاول القضاء على ما تبقى من التراث الإغريقي – الروماني الوثني واضطلع خلفاؤه الأباطرة المتحالفون مع الكنيسة بالمهمة نفسها.

تحتل ثيمة الموت في فلسفة ليانتينيس مكانة مركزية، فهو يعتبره "أهم مشكلات الفلسفة"، ويرى أنه لعب دورا رئيسا في تشكل رؤية الإغريق القدامى إلى العالم، ذلك أنهم لم يكونوا أصحاب رؤية جذلى بهيجة بقدر ما كان عالمهم مفعما بمالينخوليا لامتناهية، يظهر ذلك بجلاء في التراجيديا الأتيكية التي يعتبرها "أنبل إنجازات الإنسان على مر التاريخ"، لقد كانت فلسفتهم استقصاء للموت وسبرا لأغواره، وهو ما أدى بهم إلى استيعابه بما هو قانون كوني ثابت وغاية الحياة الأرضية التي لا تلحق في نظرهم بحياة بعدية. لقد أبصروا الموت في ضوء تناهي الكائن الإنساني، دون أي قصة عن الآخرة أو نظام جزائي أخلاقي للثواب والعقاب يكون حسب أعمال الإنسان في الحياة الأرضية.

ورغم احتواء الميثولوجيا الإغريقية أساطير فردية مثل أسطورة سيزيف الذي حكم عليه بالعذاب الأبدي في مملكة هاديس إلا أنها لا تعدو أن تكون استثناءات وهي لا تؤسس نسقا اعتقاديا بخصوص حياة بعد الموت. يعتبر ليانتينيس أن هذه الرؤية الإغريقية بطولية ذات شجاعة أخلاقية رفيعة، ذلك أنها نابعة من الشعور المأساوي، وهي نقيض الرؤى المطروحة في الديانات اليهودية التي تنبع من الخوف.

> الفيلسوف يرى أن تطلع الإغريق الحزين إلى الموت ولّد الفن، في حين ولّد خوف الآخرين من الموت الأديان

يحتفي ليانتينيس بفردية البطل الإغريقي، على خلاف الذات الشرقية التي يراها منحلة وذائبة في بوتقة الكون العظيم وخاضعة لأعراف الجماعة العضوية. إن الروح الإغريقية في نظره روح فردية بطولية تواجه موتها بسمو أخلاقي وقلب شديد، بل وقد يصل بها الأمر إلى اختيار طريقة موتها، يقول في أسلوب غنائي يحاكي لهجة أبطال الميثولوجيا الإغريقية البواسل "سوف أموت، أيها الموت، عندما أريد أنا وليس عندما تريد أنت. في هذا العمل الأخير، لن تتحقق رغبتك، بل رغبتي هي التي سوف تتحقق. أنا أحارب ضد إرادتك. أحارب قوتك. أحارب كيانك كله، سأفترش التراب عندما أقرر، وليس عندما تقرر أنت".

إن صيغة الخلود الوحيدة التي آمن بها ليانتينيس وأسلافه الإغريق القدامى هي ما وسمه بـ"الخلود داخل العالم"، أي خلود السيرة أو الذكر الذي يتركه الإنسان خلفه من خلال أعماله ومثال حياته، أو بعبارة أخرى "سمعة ما بعد الموت"، تشبه هذه الرؤية الدهرانية ما نجده عند شعراء ما قبل الإسلام من تطلع إلى حسن الذكر وعدم انقطاعه بعد الموت باعتباره الشكل الوحيد لخلود الإنسان العربي، ومثال ذلك إنشاد الحادرة الذبياني "فاثنوا علينا لا أبا لأبيكم/ بإحساننا إن الثناء هو الخلد".

يبدي ليانتينيس أسفا لما آلت إليه الثقافة اليونانية المعاصرة من تدهور وسقوط حتى صار اليونانيون المعاصرون "لامرئيين" بالنسبة إلى الأوروبيين. اليونانيون أبناء التراث الهيليني العظيم الذين صاروا نكرات بالكاد يلحظ وجودهم، يقول "بالنسبة إلى الأوروبيين.. نحن 'الإغريقيون الجدد' لسنا سوى مجموعة من المجهولين، شيء من عرب البلقان الأتراك، نحن الأرثودوكسيون أصحاب خط الكتابة الذي يشبه الروسية.. والقباب التي تعلو منازلنا القروية".

ص 10 تنشر كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

فيلسوف أسس للخلود داخل العالم